الإسلام بعيون غربية :
مراجعة كتاب "تغطية الإسلام" لإدوارد سعيد

مصطفى الصمدي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك

الكتاب صدر عن مؤسسة الأبحاث العربية سنة 1983، يقع في 200 صفحة من الحجم المتوسط وقد ألفه ادوارد سعيد بعيد كتابه الذائع الصيت "الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء". ويمكن اعتبار "تغطية الإسلام" نموذجا تطبيقيا تحليليا لما ورد في كتاب "الاستشراق" قبله من ارتباط الدراسات الاستشراقية بدوائر السلطة والقوة و الحكومات. والكتاب من حيث تأطيره الزمني يأتي ليسجل جملة من الأحداث السياسية بالشرق الأوسط و ما كان لها من تأثير على وسائل الإعلام ومن خلالها نُظر إلى الإسلام على أنه ذلك المحرك الباعث على الخطر، المتربص بالغرب وحضارته ومرجعياته، مادة الكتاب مثقلة بالحديث عن الثورة الإيرانية، واختطاف رهائن أمريكيين بعد الهجوم الشهير على سفارة الولايات المتحدة الأمريكية بإيران وميلاد منظمة التحرير الفلسطينية، وانتصار حرب أكتوبر 1973 وغيرها من الأحداث التي شكلت مادة الكتاب، يضاف إلى ذلك ارتفاع أسعار النفط وتوجس الغرب والولايات المتحدة من كل ذلك خيفة وإعدادها العدة لإيقاف هذا الخطر، وهو ما مهد لنتائج سياسية وليدة تلك المرحلة نعيش أثرها في زماننا الحاضر.

يعتمد ادوارد سعيد على كثير من المقالات حول ما يجري في العالم الإسلامي والمنتقاة بعناية ودراية وخبرة بالواقع الإعلامي الأمريكي تصور قلق الغرب من الإسلام وجغرافيته الذي يُعد مهمّا واستراتيجيا لكنه مع ذلك فضاء للعداء مما يستدعي اتخاذ الحيطة و الحذر في التعامل معه، والذي يحرك دوما هذا الصراع ويذكيه هو النقص في موارد الطاقة عند الغرب ورغبته في السيطرة على النفط العربي، هذه المشاعر الغربية زاد من حدتها انبعاث راديكالية إسلامية عارمة في العالم الإسلامي أجمع تقابل هذا التيار العدائي الغربي بأشكال مختلفة من المقاومة.

إن مفهوم الإسلام حسب إدوارد سعيد ـ في أذهان الغربيين له معنى إيديولوجي يختزل فيه، ولا يشير بالضرورة إلى حياة المسلمين الزاهرة و الزاخرة بالتنوعات الحضارية والعمرانية و التاريخية والعلمية، إنه مصطلح يثير الخوف و الصدام والقلق، كل ذلك بسبب وسائل الإعلام التي ساعدت على تشكيل صورة الإسلام بشكل استعدائي، يضاف إلى ذلك المراكز الأكاديمية في الغرب التي رصدت أموالا طائلة لذات الغرض، فأنتجت أبحاثا هائلة ودراسات استشراقية كثيرة بعيدة كل البعد عن الموضوعية، وهو ما يبين بجلاء تحالف الأكاديمي مع السياسي في مجالات ادعت العلمية والموضوعية ولكنها أضمرت خلفيات سياسية مبيتة.

لقد تم ربط الإسلام كدين معياري قائم على مرجعيات تتجاوز عنصري الزمان والمكان، بذلك الحيز الجغرافي حيث مصادر نفط الغرب ومن ثم رئته الاقتصادية وسر نموه وبقائه. إنها تغطية مرفقة بالتعمية وتحتاج إلى تعرية، وهو الغرض الأساس من تأليف الكتاب. لقد دأبت الصحف الغربية ـ سعيا منها لتغطية ما يجري في هذا العالم الإسلامي المشاكس ـ إلى إرسال صحافيين لا يعرفون لا اللغة ولا المكان ولا التاريخ، وليست لهم خبرة تساعدهم على التدقيق في الخبر قبل إرساله، يضاف إلى ذلك حضورهم إلى هذا العالم المتغير والمغاير بأحكام جاهزة، ونتائج سابقة يراد تقريرها والتدليل عليها من عين المكان.

لقد تمت النظرة إلى الإسلام على أنه يشكل دائما تهديدا للغرب وحضارته، ومن ثم الدعوة إلى تحديث المجتمعات الإسلامية، على أن طريق التحديث يمر حتما من الاحتلال، لأن الاستعمار يؤدي بالضرورة إلى الاستقرار.

ولعل القيمة الوحيدة لهذا الإسلام في نظر الغرب الليبرالي هو عداؤه للشيوعية ومقاومته الفكرية والميدانية لها، على أن ادوارد سعيد يود أن يؤكد أن الغرض من الكتاب ليس هو الدفاع عن الإسلام، وإنما رصد كيفية استخدام الغرب للإسلام، وكذلك سوء استخدام الإسلام حتى في المجتمعات والأنظمة الإسلامية كتبرير للقمع والحريات، والإسلام من الناحية العقدية بريء من هذا كله، وإن شئنا قلنا ـ إن مادة الكتاب انتقاد ذو وجهين: رفض للإسلام التبريري بالداخل، ودفع لتغطية عدائية تفتقد الموضوعية بالخارج.

إن كل المهتمين بالإسلام من مستشرقين وخبراء ومراكز علمية كلها كان لها ارتباط وثيق بالدوائر السياسية حتى إننا لا نكاد نجد باحثا مستشرقا لم يكن موظفا حكوميا أو في الشركات المتعددة، أو في وسائل الإعلام، كل ذلك ساهم بشكل كبير في تحريف الحقائق و إذكاء مشاعر العنصرية وتشويه صورة المسلمين والعرب، فالجامعات الأمريكية مثلا لم تكن لتقبل بأي تبرع مالي للبلدان الإسلامية لإنجاز الدراسات العربية والإسلامية حيث تنطلق صيحة ليبرالية هائلة ضد التدخل الأجنبي في الجامعة الأمريكية، أما حين تتبرع اليابان أو ألمانيا بالمال فلا يسمع أي تذمر من هذا القبيل. ولكن ورغم هذا التعتيم الإعلامي والعملي حول الإسلام، فإن الكاتب يوقن بأن هناك مهارات جيدة وناقدة تستطيع تمييز الغث من السمين من داخل الأوساط المثقفة الغربية تنفذ إلى حقيقة الإسلام وتاريخه وحضارته، ومن ثم فهو يسعى إلى بلورة معرفة حقة عن الإسلام بإزاحة الوسائط ودحض العوائق.

ولقد خصص الفصل الأول من الكتاب لموضوع الإسلام، في الإعلام، ليبين أن وسائل الإعلام دوما و من ورائها الشركات العملاقة تسعى إلى تصوير الإسلام وشخصياته السياسية على أنها شر يتهدد العالم الغربي ويثير الغضب والكراهية، ورجالاته ساديون يمكرون بالغرب عموما وبأمريكا خصوصا، وهذه الصورة ليست وليدة المرحلة الراهنة، بل إنها ممتدة إلى القرون الوسطى حيث صُور الإسلام بأنه دين شيطاني، ونبيه زارع شقاق وداعية تفرقة، فينعت بأقبح النعوت، وذلك باسترجاع تاريخ الصراع المسيحي الإسلامي، وكيف بسط الإسلام نفوذه على كثير من مناطق أوربا مما يُبقي الصراع مفتوحا ومحتملا عودته من جديد في صورة جديدة، فبعد الزيادات المهولة في أسعار النفط مطلع السبعينيات بدا الأمر وكأن المسلمين سينتفضون من جديد مما أوقع الغرب في حالة من القلق الدائم والمستمر.

وقد كان لنجاح ثورة الخميني في إيران الأثر البليغ في استصدار كثير من التحليلات السياسية والأبحاث الفكرية المصورة للإسلام في أبشع صورة في أمريكا رغم التباعد الجغرافي بين البلدين حيث يجري دائما محاكمة الإسلام بما عرفته الثورة الإيرانية من انتهاكات عنيفة، في حين يتم غض الطرف عن هذه المعادلة في المسيحية وهي تصارع العلم و الحضارة الغربية و ما عرفه تاريخ الكنيسة من أحداث مؤلمة في أمريكا و الغرب عموما. والمؤلف يبحث في أسباب هذا الربط الخاص بالعالم الإسلامي، بين أحداث تاريخية متلاحقة و دين ثابت طبيعي معياري دون غيره من الديانات.

على أنه يذكر ذلك التمايز الموجود بين أوربا و أمريكا في علاقتها بالإسلام، ففرنسا مثلا لها ماض عريق مع الإسلام عن طريق المستعمرات الإسلامية، وقل مثل ذلك عن إسبانيا وهولندا و إيطاليا، فكل هذه الدول كانت لها مستعمرات إسلامية مما ولد معرفة حقة بهذه المجتمعات، وعلى العكس من ذلك أمريكا، فلم يكن لها بالعالم الإسلامي صلة، ومن تم الاختلاف في وجهات النظر و طرق المعالجة.

إن ادوارد سعيد يعيب على وسائل الإعلام إغفالها وتغييبها لأصوات الخبراء المختصين في الإسلام، والاقتصار على إسلام سطحي تميعه وسائل الإعلام، ومن هنا يطرح سؤالا جوهريا حول علاقة المثقف و المفكر الحر بالسياسي، كيف يمكن للمفكر الحر أن يُبقي على نظره الثاقب و يمزج بينه و بين الولاء السياسي؟ هل من علاقة سليمة بين الأمرين؟ أم أن أحدهما يلغي الآخر؟

إن الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية سبقته دراسات أكاديمية استشراقية عن الشرق و حضارته و تراثه وتاريخه ومجاله العمراني وعاداته وأعرافه تم تقديمها مادة سائغة لذوي القرار السياسي.

لقد نُظر إلى المسلمين على أنهم طفوليون قاصروا الفهم والتفكير، وأنهم يحتاجون إلى تحديث ومن ثم وصاية من طرف الآخر المتحضر والمتمدن، ولكن هذه النظرة واجهت عنادا وتصلبا، وفي مقدمة هذا العناد الثورة الإيرانية التي وقفت في خط الممانعة لمخططات أمريكا في المنطقة.

هذا المخطط الغربي الأمريكي يرسم له ادوارد سعيد عناصر ثلاثة تضافرت فيما بينها وهي: النظرة العدائية للإسلام، وإديولوجية التحديث، وترسيخ قيمة إسرائيل ودورها

الحيوي في المنطقة بالنسبة للغرب، فهي وكيلته هناك، وهي معقل الحضارة الغربية تم تشييدها في الصحراء الإسلامية، فأمنها في عيون الغرب وأمريكا. والذي ينظر إلى الإعلام الغربي يجده ينبني على جملة من الأوهام يستغل بها سذاجة الإنسان الغربي وقبوله الأعمى لكل ما توفره له وسائل الإعلام عن الشرق وحضارته.

على أن الاهتمام بالإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية ازداد بعد الارتفاع المفاجئ لأسعار النفط أوائل عام 1974، وقبل هذا التاريخ غالبا ما كان ينظر لشعوب الشرق على أنهم عرب وإيرانيون وباكستانيون وأتراك، ولم يذكروا بصفتهم الدينية على أنهم مسلمون وإنما بصفتهم العرقية. ثم صورت هذه الشعوب فيما بعد هذه المرحلة على أنها شعوب مصممة على الشر بشكل غريب بل ومنذر بالخطر بسبب دينها وإسلامها. ثم إن وجودهم هو أمر يتضمن مخاطر بالنسبة لنا ـ أي أمريكا ـ لأنها شعوب تمتلك مصادر الطاقة. فبعد أن كانت الولايات المتحدة القوة المسيطرة على العالم أصبحت محاصرة بشكل مؤثر، لقد تم ربط كثير من الأحداث وفي مقدمتها الصراع الفلسطيني الإسرائيلي على أنها مقاومة دينية لا سياسية أو مدنية أو إنسانية، ثم إن وسائل الإعلام اعتمدت في تغطيتها للإسلام على التفسير التاريخي والتجربة الماضية لهذا الدين وهو يعانق المجتمعات و الجماعات و الأمم، فحوكم على ضوء التاريخ وسلبياته، وأضحى في ذهن الغربيين مرادفا لكلّ عواقب الخطر، فكل جماعة مسلمة تنطلق من تفسيرها الخاص ومن وعيها الذاتي بالإسلام، وليست بالضرورة موافقة للإسلام الحق، لكنه وعاء يحرك الطاقات ويستوعب كل التفسيرات.

لقد ساهم البُعد المكاني بين شعوب الشرق و أمريكا في تصوير تلك المجتمعات عبر السينما والأشرطة الوثائقية وقصاصات الأخبار على أنها حشود جماهيرية تعادي أمريكا وتتربص بها الدوائر، وخصوصا لما تعرض الأزمة الإيرانية وما حدث فيها من انقلاب سياسي وديني، هذا العالم الإسلامي ينبغي اتخاذ القرارات ضده لأنه ضدنا وإن كان يقبع بعيدا عنا، والمؤلف يدرج من موقع خبرته وحياته لمدة طويلة بأمريكا أسماء كثير من المحطات الإذاعية والتلفزيونية، وأسماء محللين صحافيين وأسماء عدد من المجلات التي يمتلئ بها الكتاب.

ولما كان المجتمع الأمريكي مجتمع ذو إثنيات متعددة و أجناس مختلفة، ومعقد بطبعه وأصله، كانت الرغبة من الإعلاميين والسياسيين هي إعطاء ثقافة منمطة تحاول لَمّ الشتات وتتوهم الإجماع القومي.

إن السياسة الإعلامية الأمريكية تضع الحدود وتمارس الضغوط، حدود الصورة الإعلامية المقررة سلفا والضغط على الرأي العام بتصوير بلد معين أو جماعة معينة على أنها مع أو ضد أمريكا، مختزلة تاريخها و حضارتها و متناسية جوانبها الأخرى الإيجابية المشكلة لحقيقتها وواقعها، ومن ثم لم تُتَح للأمريكيين فرص حقيقية للتعرف على العالم الإسلامي إلا من طريق قسري مغلوط.

لقد تأرجحت النظرة إلى الإسلام بين كونه دعوة إلى الرجوع إلى العصور الوسطى، بل و دعوة إلى تدمير النظام الديمقراطي في العالم الغربي، وتلك الاستجابة الفورية للمسلمين وهم يردون على هذا الادعاء الذي يصور الإسلام على أنه تهديد، فتتوالى الاعتذارات وتذكر إسهامات الإسلام في الحضارة والتطور و القيم.

إن الكاتب يحذر من الاستعمال السيئ للإسلام واتخاذه كغطاء سياسي لأشياء كثيرة غير دينية في أصلها، ومن ثم يدعو كما فعل ماكسيم رودنسون إلى ضرورة عزل التعاليم الدينية كما وردت في جوهرها في القرآن كلام الله و تمييزها عن الممارسة التاريخية و التفسيرات و التأويلات البعيدة عن ذلكم الجوهر عبر التاريخ. لكنه يعود ليعترف بصعوبة هذا التمييز. فكثير من الحركات والطوائف الثورية تدعي العودة إلى المنبع، والنهل من الأصل. ومن هنا صعوبة استعمال مصطلح "إسلام" أو مفهوم "إسلامي" فعن أي إسلام نتحدث؟ وإسلام من نقصد؟.

والذي يعود إلى تاريخ الإسلام يجده غير مفهوم لأنه غير متجانس، ولا يميز إلا إذا قورن بتاريخ اليابان أو الصين... لوجود تباين كبير بين مكوناته الأساسية، وتعدد سياقاته، واختلاف بنياته.

والكاتب يعقد فصلا خاصا عن نموذج إعلامي أثار استياء لدى المسلمين، وأدى إلى أزمة ديبلوماسية كبيرة بين الغرب والسعودية، إنه فيلم "موت أميرة" The Lady Death لمخرجه الانجليزي أنطوني طوماس سنة 1980 ـ حيث ربطه بسياقه الزماني وظرفه التاريخي ودوره في تشكيل صورة الآخر عند الإنسان الغربي.

والفيلم يحكي قصة إعدام مشهورة لأميرة شابة وعشيقها الذي كان من عامة الشعب، والمخرج حاول البحث عن حقيقة ما جرى فعلا وحقا. فأضحت القصة رمزا

للمآزق السياسية والأخلاقية التي يعيشها الإنسان المشرقي عموما، اعتبرتها السعودية إهانة للإسلام وشريعته.

إنه لا يكاد يخلو أي عرض تلفزيوني كثيف الجمهور من لقطات مسيئة للإسلام والمسلمين وذلك قبل عرض فيلم "موت الأميرة" بزمن طويل، وكذلك الكتب والمناهج الدراسية التي لا تذكر حقيقة المسلمين، فلا موقع للحضارة الإسلامية بها، ويتم القفز عنها قصدا وعمدا حين الحديث عن مسار الحضارة الإنسانية.

وأما الفصل الثاني فقد خصصه لقصة إيران مع أمريكا سنة 1979 إثر استيلاء طلبة إيرانيين على السفارة الأمريكية بطهران واحتجاز دبلوماسيين أمريكيين وما ترتب عن ذلك من مشاعر الغضب عند الأمريكيين، إذ تم عرض الشعب الإيراني وثقافته ودينه في صورة قتالية خطيرة معادية للولايات المتحدة الأمريكية.

لقد اعتبر الخبراء الأمريكيون أن خسارة إيران بتحولها إلى نظام إسلامي هي أعظم نكسة عانتها الولايات المتحدة الأمريكية في الأعوام الأخيرة، وبمعنى آخر، وبتعبير أدق إن الإسلام بطبيعته معاد للولايات المتحدة الأمريكية ضار مضر بمصالحها.

والكاتب ليس من أدعياء القول فيما ذكر، بل إنه يعرض ـ باطلاع كبير ـ لمقالات في صحف أمريكية عديدة حول الإسلام والثورة الإيرانية، والإسلام الشيعي كلها تفتقد إلى الموضوعية، وتختلط فيها المفاهيم وتنم عن سطحية في التحليل، وقد خلص في نهاية حديثه عن المشكلة الإيرانية إلى عقد مقارنة بين صحيفتين من صحف النخبة إحداهما أمريكية والأخرى فرنسية وما بينهما من فرق كبير في التحليل والإحاطة والدراية بخبايا الأمور الدينية والقضايا الإسلامية، وهما صحيفتي لومند والتايمز. لقد كان تمت فرق كبير بين تحليل ماكسيم رودنسون هذا المستشرق الفرنسي الماركسي البارز والمتمرس، فهو خبير محنك ومفكر عميق والصحافية الأمريكية فلورالويس مراسلة التايمز التي تمتلئ مقالاتها بالعشوائية والسطحية والتجزيء والاختزال وانعدام الموضوعية والتحليل العلمي، فجاءت كتاباتها إرضاء لقراء يتملكهم الخوف والقلق من كل ما هو إسلامي.

إن الخطأ في السياسة الأمريكية تجاه باقي شعوب العالم هو أن كل شيء يتم تفسيره على أنه تحدٍّ لأمريكا أو تعزيز لعلاقاتها الجيدة معها، و الاعتقاد بأن أهم شيء في الإسلام هو

النظر إليه على أنه مؤيد أو مناهض لأمريكا حيث يقول: "إن مثل هذه النظرة الاختزالية إلى العالم المريضة برهاب الأجانب من شأنها أن تضمن المواجهة المستمرة بين الولايات المتحدة الأمريكية و بقية البشرية المتعنتة، وهي سياسة توسع نطاق الحرب الباردة بحيث تشمل قسما كبيرا بشكل غير مقبول من الكرة الأرضية"[1].

وبناء على ذلك فالذي ساهم في تشويه صورة الآخر في ذهن الأمريكيين هو أن وسائل الإعلام استخدمت كقنوات دبلوماسية، ولم تكن أبدا محايدة تتحرى الدقة في الخبر و العمق في التحليل والحياد الإعلامي النزيه، ففي أزمة إيران وحضورها في وسائل الإعلام كان الإيرانيون وحكومة الولايات المتحدة على حد سواء على وعي كامل بأن البيانات المطروحة على الشاشات التلفزيونية لا تستهدف الناس الذين يريدون الأخبار فقط، بل هي تستهدف أيضا الحكومات ومؤيدي طرف أو آخر وتشكيلات سياسية جديدة قد تكونت أو يتوقع بزوغها.

ومما يعاب على وسائل الإعلام في تغطيتها الإخبارية بالإضافة إلى عدم التزام الدقة هو أنها غالبا ما تقوم على افتراضات من الواقع غير صحيحة وأحكام مسبقة جاهزة يدفع إليها الصحافي دفعا للاستدلال عليها وتأكيدها، وهذا التوجه الإعلامي المعادي لإيران والإسلام والعالم غير الغربي هو بمثابة رأسمال سياسي يُستثمر في الانتخابات الرئاسية إلا أنه صوِّرت بعض الشعوب والأنظمة من العالم الإسلامي على النمط الحضاري الجيد والسلوك السياسي الرزين والمقبول في نظر أمريكا من مثل مصر السادات والأسرة الملكية في السعودية في مقابلة الإرهاب الإسلامي في إيران ما بعد الثورة. "ونتيجة لذلك نجد أن معظم ما تخرج به وسائل الإعلام من تقارير إخبارية من مصر يجعل وجهة نظره فيما يتعلق بالشؤون المصرية والعربية والإقليمية يبدو كأنها النظرة الصحيحة بطريقة مؤثرة فعالة"[2].

لقد تم تقسيم المسلمين في وسائل الإعلام إلى أخيار وأشرار بحسب موقفهم من السياسة الأمريكية. ويأتي في مقدمة الأخيار السادات وضياء الحق والثوار الأفغان في

1. إدوارد سعيد، "تغطية الإسلام"، ترجمة سميرة نعيم خوري، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية. 1983، ص 125.
2. "تغطية الإسلام"، ص 128.

وجه الشيوعية والعداء لها، غير أنه لا ينبغي التسوية والمقارنة بين مقاومة الأفغان للإتحاد السوفياتي والمقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي.

وأما الفصل الثالث فقد خصصه لموضوع المعرفة والقوة حيث عرض فيه لسياسات تفسير الإسلام عند الغربيين وهي محددة في اتجاهين: اتجاه المعرفة السننية واتجاه المعرفة النقيضة.

إن ادوارد سعيد بحكم موقعه الأكاديمي المتميز داخل الجامعة الأمريكية ينتقد كثيرا من الدراسات الاستشراقية التي تفتقد للموضوعية، ويكاد يجزم أنك لا تجد شيئا في دراسة الإسلام حرا ولا تقرره الضغوط الملحة المعاصرة، لكن الباحث المنصف النزيه عليه أن ينطلق من فروع الدراسة ليقوم ببحوث معيارية بعيدة عن رغبات الحكومات والجهات.

فكل الحساسيات السياسية بالغرب تنخرط في جوقة واحدة وهي كراهة بغيضة للإسلام لأنه تهديد مستمر للحضارة الغربية، وإن كانت توجد نداءات من هنا وهناك غير حاقدة ولا معادية إلا أن الأولى أشيع وأروج وأشهر، والمقصود بالإسلام هنا تجارب المسلمين أو بعبارة أخرى تاريخانية الإسلام، ويضرب نموذجا لذلك بعض الدراسات الأكاديمية التي تدعي العلمية و الموضوعية لكنها أسهمت في تعميق سوء الفهم وبعد المشقة وتكريس الفرقة والعصبية والكراهية، مثال ذلك ما كان يدرس في جامعة برنستون من برامج للدراسات الشرقية كل ذلك بتمويل مؤسسة "فورد" لشهرتها وارتباطها بتمويل الدراسات الاجتماعية، إنها برامج ومقررات تكرس مفاهيم بعيدة كل البعد عن حقيقة الدين وترسم تصورات اجتماعية مغلوطة لانعدام الكفاءات الأكاديمية والتركيز على بعض النقاط السوداء في تاريخ الإسلام، فتشتهر تلك الدراسات بشهرة "فورد" وبرنستون" على أنها حقائق علمية وازنة، وكانت نتائجها السياسية وخيمة، حيث أعطت الشرعية لإسرائيل في احتلالها لفلسطين، وكانت بمثابة ذلك الغطاء السياسي لها، والمفارقة أنك لن تجد أحدا من الفلسطينيين الأكاديميين حاضرا ضمن هاته البرامج والمحاضرات، بل إن إسرائيليا جامعيا هو من كان يؤطر تلك البرامج والندوات، وقس على ذلك كثيرا من البرامج الجامعية والإعلامية.

إنه غالبا ما ينظر إلى الإسلام ليس كطرف محاور وإنما كسلعة تبحث عنها أسواق الحكومات والشركات المتحدة والمؤسسات لتوظيفها التوظيف السياسي المناسب.

إن «تغطية الإسلام» ليست تفسيرا حقيقيا للظاهرة الإسلامية، وإنما هي توكيد للقوة والسلطة، لأن الجماعات الأكاديمية تستجيب للجماعات القومية ومصالح الشركات. ومن ثم هنالك ارتباط قوي بين البحث العلمي ومختلف أشكال القوة في المجتمع، حتى تلك المنح التي تعطى للطلبة. فهي موجهة لخدمة مصالح الدوائر المانحة بغية إنجاز بحوث مرسومة ومعلومة الاتجاه ومن ثم النتيجة[3].

على أن ادوارد سعيد يفرق بين نظرتين متباينتين للإسلام: نظرة سننية وهي النظرة التقليدية الخاصة للسلطة والتوجه السياسي والقوة، ونظرة نقيضة وهي نظرة ممانعة وباحثة عن الحقيقة تأمل "تغطية الإسلام" من منظورات أهملها الآخرون.

وفي المبحث الأخير من الكتاب تحت عنوان: المعرفة والتفسير يتناول إدوارد سعيد الفرق بين المعرفة الطبيعية التي تتناول أصول العلوم والأشياء في نشأتها وأصلها والمعرفة التاريخية التي تتناول حركة المعرفة في التاريخ وتداولاتها المختلفة وتفسيراتها المتعددة. على أن كل الكتابات حول الإسلام انطلقت من الجانب التفسيري التاريخي بمنظور غربي أملته إكراهات تاريخية غربية وجد المفسر نفسه منساقا إليها منقادا لها، فمنها انطلق واليها كتب، فليس هناك مختبر خاص بعيد عن التأثيرات الاجتماعية والتاريخية تدرس فيه الثقافات الأخرى، وإنما الأمر غاية في الارتباط بالمجتمع وبالواقع وبالمنظور الاديولوجي والتاريخي.

لكن هذه التغطية السننية للإسلام ورموزه وحضارته لن تعمر ولن تصمد أمام زخم من الأسئلة والانتقادات لسيل من العقول المستطلعة المتحرية للحقيقة والباحثة عن النزاهة العلمية.

وإذا جاز لنا أن نلخص ما جاء في الكتاب من أفكار ومعلومات، فإنني أكاد أجزم بأن الرجل خبر الزمان والمكان والموضوع وأثمرت أفكاره رؤيا مستقبلية ثاقبة مستشرفة لما يعيشه العالم اليوم من مخاضات سياسية وأمنية يمتزج فيها الديني بالسياسي بالحضاري، كانت قد بدأت مقدماته مع المرحلة التي كتب عنها ادوارد سعيد، أعني أواخر السبعينيات من القرن الماضي.

3. "تغطية الإسلام"، ص 136.